

القائد المؤسس يُحدث للشاعر السياب

هناك من يسميه^(١) - الرجل الصامت - لانه يفكر ويجسد افكاره حقائق تنبض بالحياة وبدفء القلب الانساني، اكثر مما يقول. وهو لا يتكلم الا حين يشعر ان كلامه هذا، عمل يخدم به القضية الكبرى التي كرس لها حياته، وكل طاقاته الغنية، واذا نطق ادركت ان هناك رصيذا ضخما من الفكر والثقافة وراء كل كلمة يقولها. هو ثروة ضخمة من ثروات هذه الامة الخيرة الطيبة التي انجبت الانبياء والصديقين والشهداء والمفكرين والابطال والشعراء.

يكفي ان جزءا من فلسفته، ليس اعمق اجزائها ولا اغناها بالقيم الخالدة، قد اصبح الفلسفة السياسية الرسمية للجمهورية العربية المتحدة. وان افكاره هي المسؤولة الى حد كبير عن تفجير الطاقات الهائلة لهذا الشعب العربي الذي يحرز في كل يوم انتصارات رائعة في كل جزء من اجزاء وطنه الكبير من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي.

لم تكن مقابلي له في بغداد حيث يحل ضيفا كريما على الجمهورية العراقية، اول لقاء بيننا، فقد سبق لي ان زرته في مدينة العروبة الخالدة، دمشق بعد ان عرجت عليها عائدا من بلودان ومؤتمر الادباء العرب الثاني الذي انعقد فيها قبل حوالي العامين وجلست اليه يومها، مذهولا، احس في صمته كيان امة برمتها يتنفس

(١) مأخوذ عن كتيب من منشورات مدرسة الاعداد الحزبي، وقد سبق لجريدة الجمهورية «البغدادية» في سنتها الاولى وفي العدد الثاني بتاريخ ٩ آب ١٩٥٨ ان نشرت لقاء مع القائد المؤسس الرفيق ميشيل عفلق اجراه الشاعر المرحوم بدر شاكر السياب. ولاهمية تلك المقابلة وأهمية اعتباراتها الادبية والثقافية، فقد أعادت صحيفة «الثورة» نشرها في عددها ١٦٤٩ الصادر بتاريخ ٢٧ كانون الاول ١٩٧٣.

عبر الاجيال وينبعث من رماده وناره، كما تنبعث العنقاء الخالدة من نارها ورمادها، في اروع انبعاث واعظم ميلاد. واحس في كلماته روح امة، ورسالة امة وثورة امة. ودار الحديث يومئذ في جملة ما دار حول الشعر الحر. وكان الاستاذ ميشيل عفلق مع الشعر الحر كحركة وكامكانية قابلة للعطاء، وكان قد اطلع على بعض ما كتبه عدد من الشعراء العرب المعاصرين كعلي الحلبي ونزار القباني وكاتب هذه السطور من الشعر الحر، فاعجب به وقلت له اننا نخشى امرا واحدا هو ان يكون شعرنا الحر هذا مقطوع الصلة بتراثنا الشعري، والا يحمل ملامح من شعر طرفة بن العبد والمنتبي وابي تمام وعباقرة الشعر العربي الاخرين، لانه لن يكون له اية قيمة كشعر عربي - آنذاك، غير ان المفكر الكبير قال انه يحس بتلك الملامح في القصائد الجيدة من شعرنا الحر.

سرعان ما تحول بنا مجرى الحديث الى الفلسفة التي تغلغل ميشيل عفلق بفكره وقلبه الى ضمير الامة العربية فاستخرجها منه وسألته: متى تكونت لديك الخيوط الاولى لهذه الفلسفة فأجاب: لدي تحفظات في هذا الامر، الاول منها: انني لا اسمي الافكار التي ناديت بها طوال هذه السنوات الخمسة عشر فلسفة، وثانيها: انني لا أعتبر نفسي فيلسوفا ولا أعتبر افكاري فلسفة، ذلك ان الفلسفة هي الافكار المترابطة التي تؤلف بمجموعها نظرة معينة الى الحياة. واطرق فيلسوف معركة البقاء والخلود والعطاء التي تخوضها الامة العربية ثم واصل الحديث قائلا:

كان الفكر وما يزال يحتل مركزا كبيرا عندي، ولكن عملي القومي خلال السنوات الخمسة عشر وقبلها، لم يكن عملا فكريا وانما خلق حركة، للفكر فيها مكان اساسي، ولكن الحركة هي الامل والهدف وهذا ما يفسر وجود ثغرات في تلك الافكار التي تسميها انت فلسفة، كان العمل اهم من تكوين فلسفة وكان يلح علينا فنليه، على حساب تنظيم الفكرة وتنسيقها وتوسيعها.

واصررت من جديد على ان هناك على الاقل نواة لفلسفة واضحة فقال الاستاذ عفلق: يمكن القول بأن هناك فكرة اساسية مجتمعة كانت كافية لانطلاق الحركة اما

ماظهر بعد ذلك من توسيع وتطوير وتصحيح لهذه الفكرة فقد جاء نتيجة للعمل
وللتجربة .

وعدت أسأله من جديد عن الخيوط الاولى لهذه الفلسفة: متى ولدت؟
فأجاب: ان فكرتنا، فلسفتنا القومية، بلغت درجة الوضوح والتماسك قبيل
الحرب العالمية الثانية، بعد تجارب فكرية وعملية وبعد الاطلاع على المذاهب
الفكرية السياسية المعاصرة كالماركسية وسواها من المذاهب الفلسفية والسياسية
المختلفة وبعد تكون خميرة ادبية من المطالعات وقراءة الشعر والقصص
والروايات .

وذكرت الاستاذ ميشيل عفلق بانه كان شاعرا ممتازا ذات يوم قبل اكثر من عشرين
عاما واني قد اطلعت منذ سنوات على احدي قصائده القديمة فأعجبت بها غاية
الاعجاب وانه اديب بالاضافة الى كونه فيلسوفا فقال:

لقد بدأت حياتي بالادب ومع ذلك فلا اريد القول بانني اديب وكنت اعطي
القيمة الاولى للادب والادباء في الفترة بين سن الخامسة عشرة والعشرين، ولكن
نوع الادب الذي كنت أقرأه حتى في صغري كان على الاكثر ادبا فلسفيا، فقد قرأت
المعري مثلا لزمياته وسقط زنده وانا في السادسة عشرة من العمر وانتقيت لنفسي
مختارات من اللزوميات، وكذلك المتنبي قرأته وانا في تلك السن نفسها ولما ذهبت
الى باريس للدراسة بعد حصولي على البكالوريا كان الادباء الذين اغرتني كتبهم:
ادباء مفكرين، لذلك كان من الطبيعي الانزلاق من الادب الى الفلسفة وأول
فيلسوف تعرفت عليه عن طريق الادب هو «نيتشه» وقد شغل مكانا خاصا في
مطالعاتي، كما اعجبت غاية الاعجاب بالقصصي الروسي دوستويفسكي .

وتحدث المفكر العربي بعد ذلك عن اهمية التراث الادبي والفني في الاتجاه
السياسي فقال: ان هذا التراث هو الذي يخلق في النفس عمقا ولا يشترط فيه ان
يكون واضحا او مفهوما فقد كنت مثلا، امتص الاثار الادبية والفنية التي اصادفها ولا
اقرأها كناقذ، ان تراكم المطالعة يخلق خميرة من العمق والغنى الروحي اعتقد ان
لها اثرا غير قليل في تجنب التفكير السياسي والاجتماعي خطر السطحية وخطر

الابتعاد عن طبيعة النفس الانسانية وحقيقة متطلباتها، كما انه يمكننا من معرفة ابعاد النفس الانسانية وغناها.

وسرح المفكر الشاعر وكأنه - وهو يتابع حلقات الدخان بعينه - يتابع اسرابا، من الذكريات بذنه وارتسمت على شفثيه ابتسامة فيها من العطف والاسى والاشفاق مالا يتسع له غير قلب كبير ثم قال: لي تجربة في الموضوع مع الاخرين، فقد مررت - ضمن الحركة وخارجها - باشخاص فاقدين لهذا التراث الروحي، فكانوا عرضة للشطط والخطأ الفظيع في الاتجاهات، لان تفكيرهم يكون مجردا، رياضيا، وتنظلي عليهم سفسطات المنطق الصوري الجامد.

وعاد بنا الحديث من جديد الى الفلسفة القومية التي كان هذا المفكر العربي رائدها. وسألته عن رأيه فيما قال بعض قادة الفكر، في يوغوسلافيا من أن الفلسفة التي جاء هوبها، والحركة التي انبعثت منها منذ عام ١٩٤٣ وراحت تواكبها فتغنيها وتغني منها. . انما يقدمان للانسانية حلا جديدا لمشاكلها التي عجزت فلسفات كثيرة عن حلها. . لقد سألت فيلسوفنا العربي عما اذا كان يعتقد بأن الفلسفة تقدم مثل هذا الحل لاعلى الصعيد القومي العربي وحسب، وانما على الصعيد الانساني؟ . .

كنت اثناء مطالعاتي كلها افتش عن الاصول. . اصول هذه الفلسفة وخلقت هذه المطالعات في نفسي تلك الخميرة الادبية والفلسفية التي تحدثت عنها، فجاءت الفكرة. . حين جاءت - على مستوى انساني لا على مستوى قومي خاص. ان في هذه الفلسفة محاولة اكتشاف للحقيقة القومية وبالتالي للحقيقة القومية العربية. . واعطاء هذه الحقيقة مكانتها المشروعة بين الحقائق الانسانية الخالدة. . واطهار ايجابيتها، وهي - لهذا - لا يمكن ان تصطدم او تتعارض مع الاتجاه الانساني، ذلك لانها حقيقة قومية ايجابية.

وسألته المفكر العربي الكبير: بعد النجاح الهائل الذي حققته هذه الفلسفة بحيث تجسدت سياسة رسمية تسير عليها الجمهورية العربية المتحدة. . ماهي المرحلة التالية؟ .

كنت اعتقد ان المهمة التي تنتظرنا هي اشبه ما تكون بالمهمة التي كانت تنتظر اجدادنا العرب - ابا الفتح العربي الاسلامي . . من اعادة جماهير الشعب العربي - وخاصة في العراق الذي كان الفرس يحكمونه وسورية التي كان الروم يحكمونها - الى حظيرة الأمة العربية .

ذلك ان جماهير الشعب العربي حسب هذا الوهم لاتعي من عروبته سوى هذه الكلمة الدارجة التي تتكلمها وسوى قولها - نحن عرب - .

ثم بدد الاستاذ عفلق وهماً . قال المفكر العربي الكبير:

ان الشعب ما زال اغنى واعمق من قادته ومازال يفاجيء القادة باستمرار، فهو نزاع الى القيم الاصلية المطلقة وهذا هو ما يربطه بتاريخه .

وتمهل الاستاذ ميشيل عفلق قبل ان يستطرد قائلاً: ان ما حققناه حتى الان كان نتيجة تطبيق جزئي - وفي بعض الاحيان سطحي - لهذه الفلسفة والشيء الرسمي او الحكومي الذي اشرت اليه ما زال بعيدا عن الفهم العميق، الكامل المتماسك لفلسفة القومية العربية .

ان انتصارات القومية العربية الاخيرة كان من الممكن ان تكون اقوى واكمل لو انها استندت الى فهم اكمل واعمق لهذه الفلسفة . فهناك اذن مجال واسع للتصحيح والتعميق .

لعل انعزالنا نحن المثقفين في العراق عن جماهير الشعب العربي (لاسباب كان ارباب العهد البائد احدها) في حين ان القادة - بنسب مختلفة طبعاً - لم يبلغوا بعد، الثقة المطلقة التامة بالقيم والمبادئ التي ينادون بها . وهم - لذلك - لم يبلغوا الثقة التامة بالشعب وامكانياته .

نحن اليوم في وسط الطريق، لقد سجلنا ارتقاء محسوساً بالنسبة الى المرحلة السلبية التي كان يقودها زعماء من طبقة غريبة عن الشعب بعيدة عنه، وكانت مهمة هذه الطبقة وعملها، خنق امكانيات الشعب بدلاً من تفجيرها .

وحين ودعت استاذنا الكبير، وفيلسوفنا العربي المناضل . . كنت اشعر وكأنني استوعبت - خلال هذه الساعة التي قضيتها معه، منصتاً اليه - القرون الطويلة من

تاريخ هذه الامة العربية المجيدة التي كانت وما زالت تنجب الانبياء والشهداء
والفلاسفة والابطال والشعراء .

بغداد في ٩ آب ١٩٥٨